أخرى ، فقد أذهل الدكتور حسام قارئه في صدمة الحكم التقييمي (أحببت أو لم أحبب) القارىء الواعي ، فما بالك القارىء اللاواعي (؟ !) ، وحكم على دراسته هو بالحذر عند قراءتها .

والانتقادات التي تبقى في مستوى الحكم التقييمي ، الانفعالي ، المزاجي* ، والتي سواء في ذمها أو في مدحها تصب مباشرة في ذاتانية (Subjectivité) نقدية وليس في موضوعية (Objectivité) نقدية أساسها العمل الابداعي من خلال تشريح دقيق لبنيته الفنية (شكلاً ومضموناً على حد سواء) ، لنصل ، من خلال ذلك ، الى تقييم التجربة لا الى « رفضها » أو « قبولها » ، فلو رفضناها أو قبلناها ، لن يغير ذلك من أدبيتها » شيئاً : ستبقى قائمة بمميزاتها الخاصة ـ حتى ولو كانت هذه المميزات سيئات ـ في واقع الانتاج الأدبي ، وفي الواقع الحياتي الذي تمثله ؛ ومدى « فشلها » أو « نجاحها » متوقف على مدى موقعها وعلاقتها بهذين الواقعين فنياً واجتماعياً ، ليس على « الكيفية » العاطفية لرفضها أو قبولها ، على العنصر الذاتي بكل بساطة ، كعنصر كلي لدى المستقبل (بكسر الباء) سواء أكان ناقداً أو قارئاً .

رؤية ذاتانية للعملية النقدية

يميز الدكتور حسام الخطيب بين نص يروق للناقد ونص لا يروق له . وهو يرى ، فيما يخص التعامل الأول ، أنه « كفيل بأن يحيل الناقد الى مداحة غير نواحة ، وبالتالي كفيل بأن يفقده مصداقيته ، ومن ثم مسؤوليته ، وأخيراً سيكون ذلك عاملاً من عوامل عرقلة تكوين المعيار التذوقي المشترك الذي بفضله استطاعت الروائع العظيمة ، خلال عصور التاريخ ، أن تنال الاعتراف العام ، وأن تظفر بالخلود » ـ هذا ما يقوله الدكتور حسام ـ بمعنى أن التعامل الثاني بين الناقد والنص الذي لا يروق له سيسهل « تكوين ذاك المعيار التذوقي المشترك » الذي انطلق منه الدكتور حسام في نقده لـ « النقيض » كنص غير محبب الى نفسه . ولكن الملاحظ هنا ، وبشكل بارز ، هذا الانطلاق الذاتاني الذي يلح عليه الدكتور حسام في تعامل الناقد مع نصه : « مصداقيته ، مسؤوليته ، مداحة ، نواحة » وكأن الناقد غصن مقطوع من شجرة ، وليس جزءاً من كل فكري ينتمي اليه (وكذلك فيما يخص النص) ليصبح أمام نصه الذي يروق أو لا يروق له تلك الارادة المباشرة ، وليس تلك المنهجية التي يهتدي بها الى استنتاجاته النصيّة ، أي الاستنتاجات التي هي على علاقة بالنص المنقود عبر دلالاته الفنية والاجتماعية الحاسمة . ونتيجة حتمية للانطلاق الذاتاني في العملية النقدية ، لا بد من أن يتحول الخاص كمصطلح « شخصي » ، والمتمثل بقدرة الناقد المطلقة ، الى العام الفضفاض (المعيار التذوقي المشترك ، الروائع العظيمة ، خلال عصور التاريخ ، الاعتراف العام ، الخلود) عبر استنتاجات شمولية لا تفعل إلا أن تبرر من تلك الذاتانية ، ولكن في اطار العام ، كمخرج سهل من « تهمة » الذاتاني الى التعميمي ، فتحتضن العالم ، وتمتطي فرس العصور ، وتعبر الى الخلود (!) وهي في تعاملها مع النص لا بد من تعاملها الأفقي دوماً حتى لا تصطدم بحقيقة منهجية هامة ، ألا وهي : أن النص سواء أكان « محبباً » الى قلب الناقد أو « مبغضاً » ، فهو بإمكانه أن يكون مادة حية للتحليل العلمي ، بعيداً كل البعد عن « متاعب العلاقة الشخصية مع صاحب النص » ، مثلما يقول الدكتور حسام . وأن « الاحكام السلبية » التي لها ما يبررها موضوعياً في النص المعالج ليست من اختراع الناقد « لتستجر غضب صاحب النص وعداوته » ، مثلما يضيف الدكتور حسام ، وليجرنا ، مرة أخرى ، ألى الرؤية الذاتانية ، أو الشخصانية ، والى الوعي الفردي ، وكأن غضب صاحب النص أو فرحه سيغيران من طبيعة النص البعيد عن أن يكون نصاً منعزلاً ، من حركته ، ومن مميزاته الخاصة .

أزمة نقدية يساراً ويميناً

النقطة الثانية في هذه المسألة ، وهي نقطة مكملة للنظرة النقدية الذاتانية للدكتور حسام ، عندما يعتذر بدماثة أقدرها « لتحرشه » بـ « النقيض » ، وأنه ـ مثلما يقول ـ : « بما يحاول اثارته من اهتمام بهذه الرواية التي مضت حتى الآن دون التفاتة من

---

* اضع خارج الدائرة الشاعر بُراق والأستاذ حسن الباش فقط اللذين حاولا ، في مقالتين نقديتين ، تدعيم موقفهما ، بينما لم يتقدم واحد من الكتّاب والمستشرقين الآخرين بالكتابة تكريساً لانطباعاتهم . وعلى اعتبار أن الأكتفاء بالاحكام الشفوية فيه معنى من الهروب الى الأمام ، فأنا أوجه للجميع عتاباً عميقاً حاراً .